المركز المدني للدراسات و البحوث
Civil Center for Studies and Research

الإلحاد في اليمن

"إطار مرجعي"

أنور الخضري

الإلحاد في اليمن.

أ. أنور قاسم الخضري.

مقدمة:

تعاني اليمن اليوم مِن أزمات عدَّة وظروف مأساويَّة مختلفة، وهي تولِّد بمجموعها ظواهر جديدة أو تعمل على إبرازها وحضورها وانتشارها. وهذه طبيعة المراحل التَّحوليَّة والصَّعبة في تاريخ أيِّ مجتمع يتعرَّض لزلزال جذري تتشكَّل على إثره تغيّرات كبرى في أنساق القناعات والأفكار والتَّصوُّرات، وبنى الأخلاق والعلاقات والنُّظم الحاكمة. فما يحدث في الواقع اليمني اليوم مِن صراعات ونزاعات يذهب ضحيَّتها العديد مِن الأبرياء، وتمتهن فيها كرامة الإنسان وحرِّيَّته، وتنتهك فيها حقوقه ومصالحه، وبعضها تحت شعارات "دينيَّة" ممسوخة، هو أمر ليس بالسَّهل أو البسيط؛ لذلك نشهد ردَّات فعل متطرِّفة ذات اليمين وذات الشِّمال. وتعدُّ ظاهرة "الإلحاد" إحدى الظَّواهر الَّتي برزت مؤخَّرًا على صعيد وسائل الإعلام ووسائط الاتصال والتَّواصل الاجتماعي، ومحلَّ حديث النَّاس في مجالسهم.

وهي –ظاهرة الإلحاد في اليمن– ظاهرة جديرة بالاهتمام، والرَّصد، والتَّتبع، والتَّحليل، والتَّفسير، كي يتمكَّن المجتمع اليمني مِن التَّعامل معها تعاملًا راشدًا سليمًا. فالمعرفة أولى خطوات الوعي، والوعي أولى خطوات الاستجابة الصَّحيحة. والحكم على الشَّيء فرع عن تصوُّره، والتَّعامل معه فرع عن الحكم عليه.

وهذه الورقة محاولة لإيجاد إطار نظريٍّ لفهم الظَّاهرة في سياقاتها وأنساقها المتعدِّدة والمختلفة، وما ترتبط بها مِن أسباب، وما تؤثِّر فيها مِن عوامل، وما يتعلَّق بها مِن مظاهر؛ سعيت فيها قدر الإمكان للإيجاز والاختصار، مع نوع مِن الشُّمول ما أمكن.

وقد راعت الورقة الرَّبط بين الظَّاهرة والسِّياقات الظَّرفيَّة وبالأخصِّ السِّياسيَّة، باعتبارها المؤثِّر الأكبر على خلق التَّغيُّرات ورعاية الظَّواهر في أيِّ مجتمع. فالحديث عن الإلحاد مِن منطلق فلسفي أو عقدي بحت لن يسهم في تقديم أيِّ معالجة صحيحة لهذه الظَّاهرة، بل سيحيلها إلى لغز غيبي لا معنى للوقوف أمامه ومواجهته باعتباره منزلقًا خطيرًا للإنسان والمجتمع.

ويبقى أنَّ على المتخصِّصين، في مجالات العلوم المختلفة الاجتماعيَّة والنَّفسيَّة، دراسة الظَّاهرة دراسة علميَّة دقيقة، وإخضاعها للمعايير الموضوعيَّة والاختبارات العلميَّة والمقاييس المنطقيَّة، كلٌّ في مجاله ومِن زاوية النَّظر الخاصَّة به، للخروج برؤية متكاملة عن هذه القضيَّة الَّتي باتت تهدِّد الهويَّة اليمنيَّة القائمة عبر التَّاريخ على الإيمان. وهذا الأمر –إعداد دراسات متعلِّقة بالظَّاهرة محلِّ الحديث– ينبغي أن تتبنَّاه الجامعات اليمنيَّة ابتداء، باعتبارها حاضنة العلماء المختصِّين والخبراء، ويتوافر لديها مِن الإمكانيَّات ما يعينها على القيام بهذه

المسئوليَّة. كما ينبغي أن تتبنَّاه مراكز البحوث والدِّراسات اليمنيَّة المعنيَّة بقضايا الهويَّة والثَّقافة والمجتمع، كإحدى أولويَّاتها في هذه المرحلة.

وبالله التَّوفيق،،،

أولًا: السِّياق التَّاريخي.

منذ قرنين مِن الزَّمن، والأُمَّة المسلِمة تُعاني هجومًا مُطَّرِدًا على جبهتي الدِّين والهويَّة مِن قِبلِ قوى الاستعمار الغربي بمُختَلفِ دُولها. فقد ظلَّ الدِّينُ والهويَّة الجوهر المحرِّك لروح البقاء والمقاومة تجاه الاستعمار العسكريِّ الَّذي تكسَّرت حِرابُه تِبَاعًا تحت ضربات الشُّعوبِ المسلمة وجهادها. لذا توجَّه الغربُ في جُزءٍ كبيرٍ مِن إستراتيجيَّته العُدوانيةِ ضِدَّ الأُمَّةِ المسلمةِ لخلخَلَةِ وتدمِيرِ هذا الجوهر المحرِّك عبرَ غزوٍ فكريٍّ وثقافيٍّ ومعرفيٍّ وسياسيٍّ وتشريعيٍّ مُتتَابع. وتولَّى كِبرَ هذا الغزو رمُوزٌ مِن أبناءِ الشُّعوب المسلمة تربَّوا على مائدة الغربِ ونهلوا مِن فكره وثقافته وأخلاقه وتشريعاته، حتى انخلعوا مِن دينهم وهويَّتهم.

كلُّ ذلك كي تتهيأ الأُمَّة المسلمة مجدَّدًا لاستقبال جحَافِلِ الاستعمار العسكري برضا وترحيبٍ، فاقدة أيَّ روحٍ للمقاومة وأيَّ رغبةٍ في الاستقلال، طالما وأنَّها ترى نفسها تابِعةً وفاقِدةً للمقوِّمات إلَّا بالقدر الَّذي يمنحها لها الغربُ المتقَدِّمِ المتطوِّرِ المتحضِّرِ! فالهزيمة النَّفسيَّة هي مُقدِّمةُ الهزيمة في كافَّة الميادين: الدِّينيَّة والأخلاقيَّة والقيميَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة.

غير أنَّ متغيِّرًا جديدًا فرض نفسه خلال القرن الماضي في هذه المعادلة، إذ شهد العالم العربيُّ والإسلاميُّ صحوةً إسلاميَّةً أصبحت ظاهِرةً لا تُخطِئُها العينُ في كافَّة المجتمعات -وإن بنِسَبٍ مختلفة، ولدى جميع الشَّرائح —وإن بتفَاوتٍ بينها، وتشكَّلت في العديد مِن المجالات والمناشط. فباتت هذه الصَّحوةُ الإسلاميَّةُ تؤَرِّقُ قادةَ السِّياسةِ الغربيَّةِ، خاصَّةً وهي تتقدَّمُ نحو الإمساك بزمام السُّلطة في أكثر مِن بلد إسلاميٍّ منذ عام 1990م.

اليمن لم تكن بعيدة عن هذا المدِّ الصَّحويِّ الإسلاميِّ، فظاهرة انتشار المساجد وزيادة أعداد المصلِّين، وانتشار المراكز والمعاهد والكلِّيَّات العلميَّة الشَّرعيَّة، وانتشار مدارس التَّحفيظ، وانتشار الحجاب، والحركة الدَّعويَّة وارتفاع منسوب التَّديُّن، وغيرها مظاهر لا تخطئها العين في اليمن. كما أنَّ العمليَّات الانتخابيَّة بدأت تعطي مؤشِّرات لصعود وتوسُّعِ التَّيَّار الإسلاميِّ وتقدُّمه في كثيرٍ مِن المحاور؛ هذا مع ما يتمتَّعُ به المجتمعُ اليمنيُّ مِن طبيعة محافظةٍ وتماسُكٍ اجتماعي.

هذا الواقع بات مصدر قَلَقٍ لصُنَّاع القرار في الغرب، تخوُّفًا مِن أثر هذا التَّوجُّه على اليمن والمنطقة عمومًا. لذلك فقد عَمَدت السَّفارات الأجنبية مُنذُ وقتٍ مُبكرٍ للتَّنسيق مع كافَّة القوى المناوئة للدِّين والهويَّة بمختلف توجُّهاتها، لصناعة ما يُمكِنُ اعتباره حواجِزَ صَدٍّ ضِدَّ هذا المدِّ الإسلامي. وكان النِّظام الحاكم هو أحَدُ خيارات الغرب، وهو يُؤهِّله للإمساك

بمقاليد القُوة في صيغة استبداد عائلي- عسكري يتحكَّم بكافة مراكز القوى في الدَّولة. لذلك فقد أعلن الرَّئيس علي عبدالله صالح مع مطلع الألفيَّة الثَّالثة فكَّ تحالفه مع الحركة الإسلاميَّة، ممثَّلة في حزب "التَّجمع اليمنيّ للإصلاح".

جاء هذا التَّحوُّل في المشهد اليمنيّ عام 1990م، إذ تأسَّست الجمهوريَّة اليمنيَّة على مبدأ التِّعدُّديَّة الحزبيَّة، وفقًا لاتِّفاق الوحدة بين نظامي الشَّطرين الشَّمالي والجنوبي. فسُمح بتكوين الأحزاب والتَّنظيمات السِّياسيَّة، وتنافسها في الانتخابات وصُولًا للسُّلطة. ولأوَّل مرَّةٍ في تاريخ اليمن جرى الجدل حول مصدريَّة الشَّريعة للقوانين جميعًا مع قيام الوحدة وإقرار دستورها الموحَّد، لتكون أحدَ معاركَ السَّاحة السِّياسيَّة مُستقبلًا. وقد أشار الرَّئيس السَّابق، علي عبدالله صالح، في مقابلة حول الوحدة، بتاريخ: 1990/3/19م، إلى التَّنازلات الَّتي قدَّمها كلُّ طرف مِن أجل قيام دولة الوحدة، وأنَّها لم تكن تنازلات في قضايا ثانويةٍ وشكليّةٍ، بل مسَّت قضايا جوهريةً ترتبط بهويَّةَ الدَّولة، حيث كانت هناك وجهتا نظر: وجهةٍ ترى أن تكون الدَّولة علمانيّة[1]، وأخرى ترى أن تكون الدَّولة إسلاميَّة![2].

لقد كان هذا الجدل عام 1990م على هويَّة الدُّستور وإسلاميَّة الدَّولة نتاج مرحلة سابقة مرَّت بها اليمن. فقد عاشت اليمن -خلال قرون سابقة- حالةً مِن عدم الاستقرار والصِّراع مِن أجل الحكم؛ وانتهى بها الأمر في مطلع القرن العشرين للتَّحول إلى شطرين: شطر تغلَّبت عليه بريطانيا الاستعماريَّة (الجنوب)، وشطر تغلَّبت عليه قوى المذهبيَّة الزَّيدية (الشَّمال).

وفي النِّصف الأوَّل مِن القرن العشرين دخلت الأفكار المختلفة -الَّتي كانت المنطقة العربيَّة تموج بها- إلى اليمن؛ كالقوميَّة واليساريَّة والعلمانيَّة، عبر الطُّلاب المبتعثين للدُّول العربيَّة والأجنبيَّة، حيث كانت الجامعات ميدان الحراك الفكريّ والسِّياسيّ في العواصم العربيَّة كالقاهرة وبغداد وبيروت. ومع زيادة الوعي، قامت ثورات عدَّة ضدَّ حُكمِ الإمامة في الشَّمال لتأسيس حكم جمهوريٍّ دستوريٍّ؛ كما قامت ثورة في الجنوب ضدَّ الوجود البريطانيّ الاستعماريّ.

في الشَّمال، تصادمت قوى الثَّورة مع قوى الثَّورة المضادة، وتصارعت أجنحتها المختلفة فيما بينها، حتَّى أُنهِكت، وظلَّت البلاد تحكم مِن قبل العسكر، عدا عن حالة واحدة كانت استثناءً فيهم[3]. وفي الجنوب انتهى الأمر إلى تمكُّن

---

[1] وأكثر من عبر عن وجهة النظر هذه رموز الحزب الاشتراكي اليمني، فقد صرح علي سالم البيض -أمين عام الحزب، لصحيفة 14 أكتوبر، العدد (7899)، في: 1989/12/24م، بأن: "أفضل السبل وأنجحها للتسريع في تطبيق اتفاق عدن التاريخي والتعجيل ببزوغ فجر دولة الوحدة، الشروع في تطبيق برنامج واسع لإصلاحات شمولية تشمل مختلف جوانب شعبنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على طريق تأسيس دولة الوحدة العلمانية"؛ وفسر عمر الجاوي -أحد المشاركين في وضع دستور الوحدة- (الإسلام دين الدولة): "فالإسلام دين وليس أيديولوجيا، وليس كما يعتقد البعض، فهو دين الجميع بما في ذلك الشيوعيون"، مجلة الحكمة، في 1989/12/13م. انظر: معركة الدستور في اليمن، د. عبدالله المصري، ص30- 31.

[2] انظر: نص مقابلة تلفزيون أبو ظبي مع الرئيس السابق علي عبدالله صالح، على موقع الرئيس:
www.presidentsaleh.gov.ye.

[3] هي الفترة التي تولَّى فيها القاضي عبدالرحمن الإرياني رئاسة الجمهورية (1967م- 1974م).

اليسار مِن الإمساك بزمام السُّلطة، حتَّى أُعلِن عن قيام "الحزب الاشتراكي اليمني"، والَّذي تبنَّى الماركسيَّة العلميَّة كنهج للحكم والدَّولة.

لقد حملت الكثير مِن التَّيَّارات الفكريَّة اليمنيَّة الأفكار العلمانيَّة، القوميَّة والشِّيوعيَّة والاشتراكيَّة والوطنيَّة، وجسَّدتها في حركات وأحزاب سياسيَّة، في وقت مبكِّر، وخاضت صراعًا مع التَّيَّار الإسلاميِّ والقوى الاجتماعيَّة المحافظة حول "الدِّين" و"الهويَّة"، إذ كانت تسعى لتنحية الشَّريعة أو مزاحمتها بالقوانين الغربيَّة الوضعيَّة وبالأفكار "التَّحرُّريَّة" المناهضة للدِّين باعتباره أمرًا "رجعيًّا"!

في عام 1978م، تمكَّن علي عبدالله صالح مِن الإمساك بزمام الأمور في الشَّمال، وكانت البلاد مهدَّدة بتمدُّد القوى اليساريَّة والسُّقوط بيدها، ما دفعه للاستقواء بالتَّيَّار الإسلاميِّ الَّذي قبل التَّحالف معه أمام التَّهديدات الدَّاخليَّة، وتلك القادمة مِن النِّظام الاشتراكي في الجنوب. وفي فترة حكمه جرى منع العمل الحزبيِّ وتجريمه. هذا التَّحالف بين النِّظام والتَّيَّار الإسلاميِّ كانت تقتضيه مرحلة الحرب الباردة، والَّتي كانت على أشدِّها بين قطبي النِّظام العالمي؛ فكان الغرب حريصا على ألَّا يخضع اليمن كاملًا للمنظومة الشَّرقيَّة، وقابلا بموجة المدِّ الإسلاميِّ لمواجهة المدِّ الشِّيوعيِّ في حينه.

بعد اتِّفاق الوحدة –واندماج الدَّولتين شمالا وجنوبا– في كيان واحد عام 1990م، أصبح نظام الحكم في اليمن ديمقراطيًّا تعدُّديًّا. وهذا بدوره أتاح للتَّيَّارات الفكريَّة والأحزاب السِّياسيَّة بمختلف توجُّهاتها الإعلانَ عن نفسها، والعمل بشكلٍ ظاهِرٍ، وامتلاكَ منابر إعلاميَّة، واكتساب حضورٍ شعبيٍّ. وأعيد مُجدَّدًا النِّقاش عن قضايا الدِّين والهويَّة –كما سبق وأسلفنا، في مجلس النُّواب والسِّجالات السِّياسيَّة ووسائل الإعلام والملتقيات العامَّة والفضاء المفتوح والمجالس الاجتماعيَّة. وأعادت القوى اليساريَّة والقوميَّة والعلمانيَّة الأخرى خطابها التَّقليدي، فهاجمت الدِّين الإسلاميَّ والعلماء والدَّعوة والدُّعاة، وقادت حملات منظَّمة لتشويه صورتهم في الوعي العام. وكانت فترة التِّسعينيَّات مِن القرن الماضي مرحلة سجال وجدال وشدٍّ وجذب.

وعقب ثورة 11 فبراير 2011م أفرزت الأحداث القوى السِّياسيَّة اليمنيَّة مجدَّدًا إلى صفوف عدَّة، وكان مِن أبرزها الصَّفُّ "العلمانيُّ" الَّذي بدأ يطرح بصريح العبارة المطالبة بنظام "علمانيٍّ" ودولة "مدنيَّة" مِن منطلق إزاحة الدِّين وإحلال القوانين الوضعيَّة محلَّه، وإبعاد أيِّ صفة أو صبغة دينيَّة للنِّظام والدَّولة! وكان هذا الطَّرح مُتعدِّد الأقطاب، إذ لم يكن موحَّد القيادة والمشروع. وقد ساد خلاف كبير بين القوى السِّياسيَّة المشاركة بمؤتمر "الحوار الوطني"، في أعقاب تصويت فريق بناء الدَّولة ضدَّ أن يكون "الإسلام دين الدَّولة"، وأيضا ضدَّ أن تكون "الشَّريعة الإسلاميَّة مصدر جميع التَّشريعات"، كما

تنصُّ عليه مواد الدُّستور اليمني الحالي. فقد صوَّت ممثلو "جماعة الحوثي" و"الحراك الجنوبي" وحزب "المؤتمر الشَّعبي العام" و"الحزب الاشتراكي اليمني" و"التَّنظيم الوحدوي النَّاصري" و"حزب الحقِّ" ضدَّ مادَّة "الإسلام دين الدَّولة"[4].

سبق هذه المواقف التَّضييقُ على العمل الإسلاميِّ، عقِبَ أحداث 11 سبتمبر 2001م، عبر إجراءات شمِلَت المنطقة العربيَّة والعالم الإسلاميَّ برمَّته، على مستوى المؤسَّسات والجمعيَّات الخيريَّة والدَّاعمين والمموِّلين. وعقب 2014م، شهدت اليمن صراعًا مسلَّحًا مكَّن قوى انقلابيَّة عدَّة مِن السَّيطرة على صنعاء شمالًا، وعدن جنوبًا؛ وهي قوى معاديَّة للعمل الإسلامي بكلِّ كياناته ومدارسه ورموزه. لذلك عمدت هذه القوى على تدمير المؤسَّسات، وإغلاق الجمعيَّات، ومطاردة الشَّخصيَّات، واغتيال القيادات، وتفجير المساجد، وإيقاف مدارس التَّحفيظ والكُلِّيَّات والمراكز الشَّرعيَّة والمناشط الدَّعويَّة.

كما ساهم الوضع الاقتصاديُّ، الَّذي نتج عن هذا الصِّراع، وعن الحصار المفروض على اليمن منذ 2015م، في انصراف كثيرٍ مِن الدُّعاة وطلبة العلم والعاملين في الحقل العلميِّ أو الدَّعويِّ أو الخيريِّ عن اهتماماتهم العلميَّة والدَّعويَّة والخيريَّة للانخراط في العمل التِّجاريِّ أو المهني أو الوظائف بحثًا عن مداخيل أجور إضافيَّة، في حين هاجر عدد كبير مِنهم خارج اليمن.

وهنا، استغلَّت كثير مِن المنظَّمات الأجنبيَّة هذا الظَّرف لدعم حراك شبابيٍّ في الوسط الشَّبابي، بين الفتية والفتيات، ينحو للدَّعوة إلى الإلحاد وكذلك العلمانيَّة، وتمرير ثقافة الانحلال والتَّغريب[5]. وتتوزَّع أنشطة هذه المنظَّمات بين "لقاءات وندوات واجتماعات، وقراءة كتب، وطبع مؤلَّفات"، إضافة إلى تقديم دعم سخيٍّ للنَّاشطين المتفاعلين مع هذه الفعاليَّات الَّتي تشجِّع على الثَّورة ضدَّ عادات وقيم المجتمع الدِّينيَّة.[6]

---

(4) انظر: خلاف باليمن حول هوية وإسلامية الدولة، الجزيرة نت، في: 2013/7/25م، متوفر على الرابط:
https://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews

(5) يقول الإعلامي عادل اليافعي: "هناك منظمات دولية تعمل بجهد عظيم، وتُقدِّم الدَّعم المالي والمعنوي بهذا الحقل، تحت مسمَّى حقوق الإنسان والمساواة والعدل والديمقراطية الزائفة. انتبهوا لأولادكم وبناتكم، فهناك أيادي تعبث بهم بالخفاء، وهناك وعود لهم بإخراجهم للعيش بعالم الحرية والديمقراطية والتفسخ الأخلاقي ومحو القيم والعادات الأصيلة لمجتمعنا المحافظ".
انظر: موقع اليمن العربي، على الرابط:
https://www.alyamanalaraby.com/167410. تاريخ التصفح: 2019/5/19م

(6) وقد ذكرت مصادر –اشترطت عدم الكشف عن هويتها، لموقع "عربي 21"، تعليقًا على مقتل الشَّاب العدني، عمر باطويل، بتهمة "الإلحاد"، أنَّ مقتله كشف تنامي هذه الظَّاهِرة في عدن، والتي تتبناها مراكز ومنظمات تتلقى دعمًا سخيًّا مِن الخارج. ولم تستبعد هذه المصادر تورُّط جهات تموِّلُ الإلحاد في مدينة عدن بمقتل الناشط عمر بهدف لفت الانتباه لهذه الظاهرة، حتَّى يتسنى لها انتزاع الحماية الحكومية لأنشطتها في تشجيع الانحراف الديني، بذريعة "الخوف مِن الاستهداف" مِن مُتشدِّدين إسلاميين. انظر: موقع عربي 21:
https://arabi21.com/story. تاريخ التصفح: 2019/5/19م

وأظهرت النُّخب المثقَّفة والإعلامية الشَّابَّة (فتية وفتيات)، التَّابِعة للأحزاب العلمانيَّة، جُرأةً في تناول القضايا الدِّينيَّة بنوع مِن الاستهزاء والسُّخرية والطَّعن والاعتراض والتَّكذِيب عبر تصريحاتهم ومقالاتهم وصفحاتهم على مواقع التَّواصُل الاجتماعي؛ ما أشعَلَ هذه المواقع بالرُّدود والنِّقاشات وشوَّه جمال الثَّورة الشَّعبية؛ فقد حُسِبَ هؤلاء على ساحاتها ومُناصِريها.

لقد تخوُّفِ الغرب مِن تمكُّن الإسلاميِّين في المنطقة، خاصَّة بعد نجاحهم في تونس ومصر وبروزهم في ليبيا، فسعى لوأَدِ هذه الانتصارات عبر تغيير قواعد اللُّعبة، وإعادة دور الأنظمة الوظيفيَّة. لذا فقد ظهرت مناشط النُّخب الشَّبابيَّة المتعَلمِنة مبكِّرًا بالتَّزامن مع الحراك الثَّوري لشباب السَّاحات، واستمرَّ الأمر كذلك إلى حين إسقاط صنعاء وعدن!

وقد كان الهدف المعلن للثَّورات المضادة التي نفَّذها الإقليم، وباركها الغرب، هو مواجهة "الإسلام السِّياسي"؛ وهي لافتة يُقصدُ بها حملةَ الإسلام الَّذين يسعون لتمكين الإسلام، وجعله حقيقةً واقعيَّةً، لها وجودُها الفعليَّ في أمَّة تقوم لها دولة تنبع مِن إرادتها وتحمل هويَّتها. بل إنَّ موجة عريضة مِن استهداف الإسلامَ ذاتَه بالعداء والطَّعن والتَّشكيك والتَّزييف انطلق، باعتباره شعلة حركات "الإسلام السِّياسي"، وأصبح الهجمة المنظَّمة تطال الدَّساتير والقوانين، ومناهج التَّعلِيم، ورسائل الإعلام، وخُطب المساجد، والكُتُب والسَّاحة الثَّقافيَّة، والكيانات الإسلاميَّة، دون تمييز غالبا.

هذه الحملة الدُّوليَّة والإقليميَّة أعطت القوى المحليَّة المعادية للإسلام والإسلاميِّين فُسحَةً مِن أمرها، ما دفعها لاستغلال هذه الموجة مِن العداء العالميِّ والإقليميِّ لصالح فرض وجودها واحتكار السَّاحة لها. كما أنَّ النَّفعيِّين والمصلحيِّين، الباحثين عن المكاسب والمناصب الدُّنيويَّة، وجدوا في هذه الحملة فرصتهم لتحقيق ما يمكِنُ مِن تطلُّعاتهم الماديَّة وشهواتهم ومطامعهم.

لا غرابة في ظلِّ هذه الأجواء المحمُومةِ أن ينال المنافقون بكُلِّ أصنافهم مِن محكمات الدِّين وثوابت الهويَّة، مع تراجع قوَّةِ الإسلام وحملته وبروز حالة عداء ضدَّهم. وأن تبرز على السَّطح أيضًا مظاهر هذا النَّيل وعبر المنابر المختلفة: سياسيَّة، قانونيَّة، إعلاميَّة، تعليميَّة، ثقافيَّة. فلا يُمكِنُ فصلُ فهم ظاهرة الإلحاد عن قراءةُ الواقع عمومًا، وتحليل الأبعاد والسِّياقات التي نشأت ونمت فيها.

ثانيًا: مظاهر الهجوم على ثوابت الدِّين والهوية.

منذ عام 2011م، عاشت اليمن ارتدادات فكريَّة وثقافيَّة ودينيَّة نتيجة المخاض السِّياسي الَّذي شهدته البلاد على خلفيَّة الثَّورة الشَّعبية التي انطلقت في 11 فبراير ضدَّ نظام صالح، وما تبعه مِن ثورةٍ مُضادَّة برعاية إقليميَّة ودوليَّة استهدفت أيَّ تحوُّلٍ في المشهد قد يكون لصالح التَّيَّار الإسلاميّ. وأصبح المجتمع اليمنيُّ مكشوفًا أمام الحِراك المضلِّل والخرافيّ والبِدعيّ والعلمانيّ، ومفتوحًا أمام الأفكار التَّغريبيَّة والدَّعوات المنحرفة. وقد ساهمت وسائط الاتِّصال ووسائل التَّواصُل مِن تسلُّل هذه الأفكار، وعزَّزت المنظَّمات المشبوهة مِن نشاطها وبقوَّة في أوساط الشَّباب، في الجامعات والشَّارع العام عبر منافذ عدَّة.

ونتيجة للصِّراع السِّياسي فقد انخرطت قوى عِدَّة في صفِّ العداء تجاه التَّيَّار الإسلاميّ بصِفةٍ عامَّة، وإن تعدَّدت دوافعهم وغاياتهم؛ ما جعل كثيرًا مِن هذه القوى مُنخرِطًا في الهجمة الدُّوليَّة والإقليميَّة، العسكريَّة والأمنيَّة، ضِدَّه. وأصبحت هذه القوى تستقطب الشَّباب إليها، ساعية في توظيفهم في الصِّراع السِّياسي ضدَّ خصمهم التَّقليديّ "الإسلاميّ"!

هذه الظُّروف تتسِّق مع ما يجري في المنطقة عمومًا ضدَّ الإسلام؛ فكلُّ محاولات الانقلاب والفوضى لا تستهدف إحلال قوى سياسيَّة محلَّ أخرى فقط، بل وإحلال هويَّةً محلَّ هويَّة، ورؤيةً محلَّ رؤية. كما لا يمكن عزلها عن صور الغلو والتَّطرُّف الَّتي أريد إبرازها عبر ما عُرِفَ بـ"تنظيم الدَّولة الإسلامية" في الشَّام، والتي أصبحت تتداول وتنشر باعتبارها صورةً نمطيَّة للتَّيَّار الإسلاميّ، تارة بوصفه "جهاديًّا"، وتارة بوصفه "سلفيًّا"، وتارة بوصفه "إسلاميًّا سياسيًّا". وقد وصل أثر هذا التَّنظِيم للوسط اليمني بكُلِّ ما يحمله مِن أفكارٍ شاطِحةٍ ومواقِفَ حدِّيَّةٍ ومشَاعِرَ عدوانيَّةٍ للمُخالِفين واتِّهاماتٍ لهم بالخيانة وبالكفر!

وما يمكن رصده مِن مظاهر للتَّطاول على ثوابت الدِّين والهويَّة، في إطار كونها عملا مُنظَّمًا ومرعِيًّا وموجَّهًا بحيث يكون ظاهِرة مؤثِّرةً في تشكيل وعي المجتمع وسلوكياته، وليس في بعدها الفردي أو في حال كونها ذنوبًا يقع فيها بعض النَّاس لجهلهم بالدِّين أو سوء أخلاقهم فيتوبون مِن قريب. فعندما تتحوَّل السَّيِّئات مِن أخطاء فرديَّة، وسلوكيات عفويَّة، وذنوبٍ لا يهدِفُ مِنها النَّاس شيئًا أبعد مِنها، إلى تخطيط وتنظيم ومشروع موجِّه تصبح خطرًا وتهديدًا أكبر على معتقدات النَّاس وتصوُّراتهم ووعيهم وأخلاقهم وسلوكيَّاتهم. وهذا هو خطرُ البِدعة، والنِّفاق، واستحلالِ المعاصي؛ فكُلُّ واحِدة مِن هذه المخالفات تتحوَّل إلى قاعِدة مُطَّرِدة ومنهج مُتَّبع، وهنا سنورد أمثلة على هذه المظاهر:

الأوَّل: التَّطاولُ على الذَّات الإلهية:

سبق أن شهِدَت اليمنُ مُعتركًا ثقافيًّا حول مسألة التَّطاولِ على الذَّاتِ الإلهية، في عهد الرئيس السَّابق، علي صالح. فقد كان الملحق الثَّقافيُّ لصحيفة "الجمهوريَّة" –الرَّسميَّة– منفذًا لكتابات أولئك الطَّاعِنين في الدِّين والشَّريعة والهويَّة، مِن السَّاقطين أخلاقيًّا، بمختلفِ انتماءَاتهم السِّياسيَّة. وقد طالت كتابات هؤلاء الصَّحفيِّين والكُتَّاب علماء الإسلام المعاصرين والسَّابقين، والصَّحابة –رضي الله عنهم، والثَّوابت والمحكمات الشَّرعيَّة، إلى حدِّ الاستهزاء بالذَّاتِ الإلهية؛ في سابقةٍ هي الأُولى مِن نوعها.

القضيَّة الَّتي شغلت الرَّأي العامَّ، وأحيلت إلى القضاء اليمنيّ، مثَّلت كسرًا لـ"تابوت المقدَّسات" –كما يقولُ التَّيَّارُ العلمانيُّ. وهو أمرٌ لم يكُن ليَتِمَّ عبر صحيفةٍ رسميَّةٍ لولا وجود ضوءٍ أخضرَ مِن القيادة السِّياسيَّة العُليَا في البِلاد، والَّتي اعتادت أن تفتح المجال لصراعات مختلفة كي يُفرِغَ الجميعُ طاقتَهم فيها، لتبقى هي ممسكة بسلطة الدَّولة وقياد المجتمع.

وقد أظهرت الحادثة، وخطُّ تحرير صحيفة "الثَّقافيَّة"، حينها، مدى وجود تيَّارٍ علمانيٍّ صارخ في أوساط الأحزاب، والمنظَّمات المدنيَّة والحقوقيَّة، ووسائل الإعلام. حيث برز تعاطُفٌ كبيرٌ بين مكونات هذا التَّيار الممتدَّة مِن الحزب الحاكم إلى بقيَّةِ الأحزاب والتَّنظيمات الاشتراكيَّة والبعثيَّة والنَّاصريَّة والزَّيديَّة!

وقد تدثَّرَ هؤلاءِ المتجرِّئون بالأدب والفنِّ والثَّقافة والنَّقد ليتمكنوا مِن تمرير أفكارهم الخبيثة وأقوالهم الشَّنيعة. ففي 16 يوليو 2000م، ندَّدت مؤسَّسات إعلاميَّة، حكوميَّة وأهليَّة، ونقابة الصَّحافيين اليمنيّين واتِّحاد الأدباء والكُتَّاب اليمنيِّين، بما اعتبروه "حملة تكفير" يتعرَضون لها على خلفيَّة قضيَّة صحيفة "الثَّقافيَّة"، ورئيس تحريرها سمير اليوسفي؛ واصفين في بيان مُشتركٍ: المحاكمة الَّتي تعرَّضوا لها بأنَّها "ظالمة"، و"تستهدِفُ مصادرة الآراء وإرهاب المفكِّرين والصَّحافيِّين والكُتَّاب". وكانت صحيفة "الثَّقافيَّة" أعادت نشر رواية "صنعاء مدينة مفتوحة"، للكاتب محمد عبد الولي، الَّتي تضمَّنت حسب الدَّعوى القضائيَّة إساءَةً للدِّين الإسلاميّ، ومساسًا بالذَّات الإلهيَّة[7]، وقد استطاع هؤلاء المتطاولون الإفلات مِن العقاب في ظِلِّ دعم الحكومة لهم –في حينه، ودفاع المنظَّمات الغربيَّة عنهم.

هذه الجرأة عادت مُجدَّدًا عقِبَ الثَّورة كمحاولة جديدة لإقحام المجتمع في صراع خارج هدف تغيير النِّظام، وكأنَّ المطلوب قطعُ الطَّريق على الثُّوار، واستفزاز التَّيَّار الإسلاميّ لينحو للتطرُّف وحمل السِّلاح والانخراط في صراع مع شبابٍ يوجِّهُهم النِّظام ويرعاهم الغرب، ومِن ثمَّ يصبح التَّيَّار الإسلاميُّ مجرَّمًا ومُتَّهمًا بتصفية مواطنين يمنيين خارج إطار القانون.

---

[7] انظر خبر: محاكمة رئيس تحرير الثقافية تستأنف اليوم، صحيفة الحياة اللندنية، في: 2000/7/16م؛ على الرابط التالي:
http://www.alhayat.com/article/1051600
تاريخ التَّصفح: 2019/5/20م.

ومِن المفارقات العجيبة، أنَّ ما جرى في اليمن جرى في مِصر وتونس أيضًا، حيث دُفِعَ عددٌ مِن الشَّباب لإعلان إلحادهم، وتطاولهم على الذَّات الإلهيَّة عقب الثَّورات هناك؛ وأصبح لهذه الأفعال صدى واسعًا في وسائل الإعلام. ما يعني أنَّ التخطيط خاضِعٌ لنفس الإستراتيجيات والتكتيكات إن لم يكن المخطِّط جِهة واحِدة دولية.[8].

الثَّاني: التَّطاول على النَّبي –صلى الله عليه وسلم:

أسلفنا أنَّ التيار الشِّيعي سعى، ومنذ بروزه على المشهد السِّياسي عقِب 1990م، لإثارة التَّشكيك في الصَّحابة –رضي الله عنهم؛ وأنَّه تولَّى عبر صُحُفه ومنشوراته التَّشكِيك –أيضًا– في السُّنَّة النبويَّة –على صاحبها أفضل الصَّلاة والسَّلام. ودافعه لذلك هو ترسيخ رؤيته الأيديولوجيَّة الجديدة الَّتي بدأت تلتقي مع الفكر الخميني والمذهب الشِّيعي الاثنا عشري، والَّتي تتطلَّبُ ابتداءً نزعَ القداسة عن السُّنَّة النَّبويَّة وإسقاط عدالة حملتها وتشويه صورتهم.

فكانت صحيفة "الأُمَّة" و"الشُّورى" و"البلاغ"، ومنشورات مختلفة لتنظيمات التَّيَّار الزَّيدي، حافِلة بكُلِّ الكِتابات الطَّاعنة في السُّنة النَّبويَّة، إلى حدِّ السُّخرية والاستهزاء. ولم تكُن هذه الصُّحفُ لتُمانِعَ مِن استضافة كتابات كُتَّابٍ يساريين يلتقون معها على الطَّريق وإن اختلفت غاياتهم.

هذه الكتابات بالإضافة إلى كتابات العلمانيِّين الَّتي كانت تحفل بها صُحُفُ اليسار: "صوتُ العُمَّال" و"المستقبل" و"الثَّوري" و"التَّجمُّع"، وصُحُفُ أحزاب البعث والنَّاصريين، شجَعت كثيرًا مِن الشَّباب والفتيات على خوض غِمارِ التَّجربة والطَّعن في السُّنَّة، وفي مقام الرَّسول –صلى الله عليه وسلم، وزوجاته، وصحابته. وكأنَّ المرء لا يُصبِحُ كاتِبًا إلا بالقيام بهذه الأدوار السَّاقطة. واشتهرت أقلامٌ عِدَّة في هذا الشَّأن، شغلت الرَّأي العام بكتاباتها المستفِزَّة وأفكارها السَّيِّئة؛ والتي افتقدت غالِبًا للذَّوق العام.

لم يتوقف الأمر على السُّنة النبويَّة، بل تجاوزها لمقام النُّبوَّة والنَّبيّ المصطفى –صلى الله عليه وسلم. ففي 1995م، شارك وفدٌ يمنيٌّ شبه رسميٌّ، بحضورِ شخصيَّات زيديَّة، مؤتمرًا يدعو لتوحيد الأديان بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. وقد أوضح التَّسجيل المرئي الَّذي سُرِّبَ عن المؤتمر، مشاركة كُلٍّ مِن: أحمد محمد زبارة –مفتي الجمهورية اليمنيَّة سابِقًا، ود. مرتضى زيد المحطوري –مرجع زيدي، ومحمد سالم عزَّان –قيادي سابق في تنظيم الشَّباب المؤمن، وعبدالكريم جدبان –عضو مجلس النُّواب سابِقًا، والقيادي في جماعة الحوثي. ويظهر في التَّسجيل المصوَّر زبارة وهو يشيد بتعاليم زعيم الحركة

[8] في مايو 2012م، أدانت محكمة تونسية نبيل القروي، مُدير قناة "نِسمة"، بتهمة "النيل مِن الشعائر الدينية"، وقضت بتغريمه مبلغا ماليًّا، على خلفية بث القناة لشريط كرتوني، كان سببًا في اندلاع أعمال عنفٍ بسبب تجسيده في أحد المشاهد للذات الإلهية. وفي يناير 2019م، قام نزار عمامي، النائب البرلماني التونسي عن الجبهة الشعبية، بترديد عبارات تضمَّنت إهانة للذَّات الإلهية؛ كما سبق لنواب آخرين انتهاج ذات السلوك.

"المونية"[9] "صن مون"[10]، الَّذي يدَّعي النُّبوَّة. وكانت لهذه الزِّيارة أصداءٌ في الدَّاخِل، باعتبارها كانت تمهِّدُ لقبول مِثل هذه الأفكار والمعتقدات، والسَّماح لها بالتسلُّل إلى المجتمع اليمني عبر مدِّ الجسور وفتح المنافذ أمامها.

كما برزت شخصيَّة ثُريَا منقوش كأوَّل امرأة تدَّعي النُّبوَّة في الوسط الإعلامي والثَّقافي. وهي امرأة كانت تنتمي للتَّيَّار اليساري الماركسي، وعضوة في الحزب الاشتراكي اليمني. أفصحت ثريا عن دعواها عام 1982م، ثمَّ استمرت في خُطاها هذه حتَّى عهد الوحدة. ولم يصدر أيُّ ردِّ فعلٍ رسميٍّ مِن مؤسَّسات الدَّولة اليمنيَّة، لا قبل الانقلاب ولا بعده، تجاه ما تطرحه في مقالاتها وندواتها. كما لم يُبدِ الحزب الاشتراكي أيَّ استنكارٍ لهذه الدَّعوى الصَّادِرة مِن عضوة مِن أعضائه!

أمَّا الحزب الحاكم –المؤتمر الشعبي العام– فقد احتفى بها في بعض صحفه ومواقعه؛ ففي 29 يونيو 2004م، أجرى موقع "المؤتمر نت"، حوارًا صحفيًّا معها، تحت عنوان: (ثريا منقوش: هذه براهين نبوَّتي). وجاء في ثنايا حديثها: "أنا لست بدعوتي ضِدَّ الدِّين الإسلامي والرِّسالة الَّتي حملها محمد بن عبدالله، فهي رسالة سماويَّة رضيت بها أم لم أرض، وأنا متأثِّرةٌ وقابِلةٌ لهذه الرِّسالة، فهي رسالة التَّوحيد الَّتي ستسمو بالدِّين الإسلامي ليصبح دينا كونيًّا مع تعديل الشَّريعة والمنهج ليس إلَّا بما يتلاءم والواقع الَّذي تعيشه البشرية الآن"[11].

وكان آخر مقالٍ لها نشرته، في موقع "يمن برس"، في 2 أكتوبر 2015م، تقول فيه: "ها أنا أوصلها لكُلِّ البشرية أنا أولى المرسلات، ختم ابن عبدالله الرُّسلَ في الذُّكور، وفتحتُها للمرحلة القادمة الَّتي ستستمرُّ حتَّى قيام السَّاعة الَّتي لا يعلمها أحد سواك، وشرفتني بهذه البداية، فأنا أولى المرسلات كما كان محمد خاتمَ النَّبيِّين".

ومع قيام الثَّورة شهِدت اليمن مَن يَصِفُ "صالح" بأنَّه نبيٌّ! ومَن يصِفُ عبدالملك الحوثي بأنَّه نبيٌّ! وأصبح هناك مَن يدَّعي النُّبوة أو المهديَّة ساعيًا في تضليل النَّاس[12].

الثَّالث: التَّطاول على الدِّين الإسلامي.

لم يخرِ عبر التَّاريخ الإسلامي أيُّ صراع حول الدِّين –كعقيدة وشريعة– بين التَّيَّارات السِّياسية، والطَّوائِف الدِّينيَّة، والمذاهب الفقهيَّة، فقد ظلَّ الجميع متمسِكًا بمبادئ الدِّين الإسلامي الكُليَّة، وإنَّما دخل هذا الصِّراع للمَنطِقة مع بروز

---

(9) حركة دينية مشبوهة، تدعو إلى توحيد الأديان وصهرها في بوتقة واحدة، بهدف إلغاء الفوارق بين الدِّيانات والمعتقدات السماويَّة وغير السماويَّة. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، ط1420/4هـ.

(10) قِسٌّ كوريٌّ، مِن مواليد كوريا عام 1920م. ادَّعى النُّبوَّة في وقت مُبكِّر مِن حياته. وانتقل عام 1973م إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك قويت حركته وانتشرت في القارة الأمريكية وخارجها.

(11) انظر: موقع المؤتمر نت: https://www.almotamar.net/news/11780.htm تاريخ التصفح: 2019/6/25م.

(12) في يناير 2019م، ذكرت مصادر إعلامية أن مواطنا يمنيا من محافظة ذمار –ويدعى صالح بن علي القوسي– ادعى النبوة، مطالبا الناس بالإيمان به: https://alhudhudonline.com/news5615.html ووَصفَ الإعلامي عبدالله هاشم الحضرمي، المقرَّب مِن الرئيس السَّابق علي صالح ورئيس تحرير صحيفة اليمن اليوم المؤتمرية، المرجع الشيعي اللبناني حسن نصر الله بأنَّه نبي هذا الزَّمان! وقال الشاعر الحوثي معاذ الجنيد مخاطبا عبدالملك الحوثي، في قصيدة يمتدحه فيها: (إنِّي أرى فيك النبيَّ)!

العلمانيَّة في أوربا، واتِّساع حركة الإلحاد الشُّيوعي عقِب قيام دولته في روسيا لتصِلَ إلى آسيا وأفريقيا. وعقب سقوط الخلافة العثمانيَّة بات الدِّين الإسلامي موضوعًا فكريًّا وسياسيًّا يجري التَّطاول عليه، والتَّشكيك بصلاحيته وقدرته على تلبية العصر وحاجيات المجتمعات فيه، ومِن ثمَّ الدَّعوة لإقصائه عن الدَّولة أو عن الحياة.

كانت اليمن كبقيَّة أجزاء العالم الإسلامي تُعاني مِن هذا المدِّ العلماني الذي أصبح يتشكَّل في قوى فكريَّة وسياسيَّة تسعى للإمساك بالسُّلطة وتوجيه الوعي المجتمعي. وفي حين كان الحزب الاشتراكي يقوم بدور معادٍ للدِّين في الجنوب أصبح يتهدَّد مكانة الدِّين في الشَّمال بعد توقيع اتِّفاقية الوحِدة وتقاربه مع بقيَّة الأحزاب العلمانيَّة الأخرى الَّتي أعلنت عن نفسها.

وقد أشار الرَّئيس صالح، في مقابلة معه حول الوحدة، في 1990/3/19م- إلى التَّنازلات الَّتي قدَّمها كُلُّ طرفٍ مِن أجل قيام دولة الوحدة، وهي تنازلات مسَّت قضايا جوهرية تتعلَّق بهويَّة الدَّولة. حيث أشارَ إلى وجهتي نظر: وجهة ترى أن تكون الدَّولة علمانية[13]، وأُخرى ترى أن تكون الدَّولة إسلاميَّة![14]

ومما لا شكَّ فيه أنَّ الدُّستور هو أبو القوانين، وأنَّ تغييره يمسُّ كافةَ شئون الدَّولة العلمية والثقافية والإعلامية والدِّينية. وعلمنة الدُّستور هي خطوة للقضاء على ما تبقَّى للإسلام مِن حضور في الدَّولة اليمنية، وفتحٌ لكُلِّ أبواب الشَّرِّ التي يمكن أن يلج مِنها الملحدون والمعادون للدِّين.

الرَّابع: التَّطاولُ على حملة الدِّين قديمًا وحديثًا:

فتح التَّشيعُ منذُ القِدم باب الطَّعن في الصَّحابة –رضي الله عنهم، وامتدَّ هذا التَّطاول عبر التَّاريخ ليشمل علماء الإسلام وأئمَّة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم. وكان للشِّيعة أثرهم الواضح في تعزيز ثقافة الطَّعن والتَّكفير والتَّفسيق والسُّخرية في أوساط العامَّة ضدَّ مخالفيهم، حرصًا على أتباعهم مِن أن يستمعوا لهم ويتأثروا بهم. فكان هذا منهجًا وسلوكًا متَّبعًا لديهم. وقد أحيا الانبعاث الزَّيديُّ الحوثيُّ هذا النَّهج مع تقاربهم بالشِّيعة الاثنا عشرية[15].

الأمر ذاته حدَث مع دخول الأفكار العلمانيَّة، وخاصَّة اليساريَّة مِنها، لليمن. حيث اتَّخذ العلمانيُّون واليساريُّون تحديدًا مِن رجال الدِّين –مِن العلماء والدُّعاة والخطباء والأئمَّة- هدفًا لطعنهم وتطاولهم واستهدافهم بالسَّجن، أو

---

[13] وأكثر من عبر عن وجهة النظر هذه رموز الحزب الاشتراكي اليمني، فقد صرح علي سالم البيض –أمين عام الحزب- لصحيفة 14 أكتوبر –عدد 7899 في 1989/12/24م بأن: "أفضل السبل وأنجحها للتسريع في تطبيق اتفاق عدن التاريخي والتعجيل ببزوغ فجر دولة الوحدة، الشروع في تطبيق برنامج واسع لإصلاحات شمولية تشمل مختلف جوانب شعبنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على طريق تأسيس دولة الوحدة العلمانية"؛ وفسر عمر الجاوي –أحد المشاركين في وضع دستور الوحدة- (الإسلام دين الدولة): "فالإسلام دين وليس أيديولوجيا، وليس كما يعتقد البعض، فهو دين الجميع بما في ذلك الشيوعيون"، مجلة الحكمة 1989/12/13م. انظر: معركة الدستور في اليمن، د. عبدالله المصري، ص30- 31.

[14] نصُّ مقابلة تلفزيون أبو ظبي مع الرئيس السابق علي عبدالله صالح على موقع الرئيس: www.presidentsaleh.gov.ye.

[15] والأمثلة على ذلك كثيرة منها، ما تفوه به الشَّاعر الحوثي محمد الجرموزي، المقرَّب مِن زعيم الجماعة عبدالملك الحوثي، ومِن أبرز شعراء الجماعة والضَّيف الدَّائِم لقناة "المسيرة"، في قصيدة نشرها بصوته وصورته في صفحته على الفيس بوك, وتطاول فيها على صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم, وخصُوصًا أبي بكرٍ وعمر –رضي الله عنهما, ناعِتًا لهم بالرِّدة والكفر، وناسِبًا لهم كُلَّ المصائِبِ والفِتنِ.

التَّعذيب، أو القتل؛ كونهم مروجي "أفيون الشُّعوب"! فقد قُتِلَ وسُجِنَ وعُذِّبَ في المحافظات الجنوبيَّة بعد الاستقلال عن الاستعمار البريطاني على يد الحزب الاشتراكي الكثير مِن العلماء والدَّعاة والخطباء والأئمة. وكانوا محلَّ التَّندُّر والسُّخريَّة في خطابات قادة الحزب ورموز التَّيَّار.

مع انتشار الصَّحوة وارتفاع صوت الدَّعوة عقِبَ الوحدة تراجعت بشكل كبير هذه الظَّاهِرة، فكان للعلماء والدُّعاة والخطباء والأئمَّة مكانتهم، واحترامهم وتقديرهم في الأوساط الاجتماعيَّة والعامَّة. غير أنَّ التَّنافسَ السِّياسي غذَّى مجدَّدًا هذه النَّزعة عند الزَّيدية الحوثيّين واليساريّين وعموم العلمانيّين إضافة للحزب الحاكم. فقد كان الصَّحفيُّون والنُّشطاء يتطاولون على رموز ومرجعيات "التَّجمُّع اليمني للإصلاح"، المنافس الحزبي والسِّياسي القوي، العلميَّة والدَّعويَّة.

ازدادت هذه الظَّاهرة بعد قيام ثورة 11 فبراير 2011م[16]، واستقوت بعد انقلاب 2014م، وأصبحت دماء العلماء والدُّعاة مباحةً للمليشيات الحوثية في الشَّمال، والقوى اليسارية الفاعِلة في الجنوب[17]. حتَّى أصبحت مواقع التَّواصل الاجتماعي تعجُّ بالعبارات السيِّئةِ والرُّسوم المؤذية والاتِّهامات والفبركات الباطلة. كلُّ ذلك مكايدة لـ"التجمع اليمني للإصلاح" والقوى الإسلاميَّة الَّتي برزت بعد الثَّورة وأصبحت هدفا للمجتمع الإقليمي والدُّولي.

(16) ولم يُفرِّق ذلك السُّلوك بين تيَّار وتيَّار، وجماعة وجماعة، بل كان المقصود استهداف الجميع. فمِن بين أبرز الرُّموز التي تمَّ التَّطاول عليها الشيخ عبدالمجيد الزنداني، والدكتور عبدالوهاب الديلمي، والشيخ مقبل الوادعي –رحمه الله.

(17) تفيد تقارير حقوقية وإعلامية وأمنية عدَّة عن حوادث قتلٍ وسجنٍ وتعذيبٍ خارج إطار القانون لعدد مِن العلماء والدُّعاة والخطباء في ظلِّ سلطة الحوثيين في الشَّمال واليسار في الجنوب. ما دفع الكثير مِنهم للفرار خارج اليمن. انظر: https://www.aljazeera.net/news/humanrights

ثالثًا: طـلائع الحملة على ثوابت الدِّين والهوية:

ممَّا سبق فإنَّ هناك مجموعة قوى كانت وراء العداء والتَّطاول على الدِّين والهويَّة، وهي قوى عقديَّة وفكريَّة وسياسيَّة، ويمكن حصرها فيم يلي:

- حركة البعث الزَّيدي المرتبط بإيران والمذهب الشِّيعي الاثنا عشر.
- قوى اليسار وفي مقدِّمتها الحزب الاشتراكي.
- الأحزاب العلمانيَّة.
- الحزب الحاكم في عهد علي عبدالله صالح.
- أصحاب الأهواء والشَّهوات.

الأولى: حركة البعث الزَّيدي المرتبط بإيران والمذهب الشِّيعي الاثنا عشر:

مع بروز الفكر الخميني والثَّورة الإيرانية، في الثَّمانينيَّات مِن القرن الماضي، استعاد الزَّيدية حماسهم في إحياء مذهَبِهم. غير أنَّهم هذه المرَّة سعوا في تجسير العلاقة بين مذهبهم والمذهب الاثنا عشري للتَّمكُّن مِن إقناع إيران لدعمهم؛ ما دفع بدر الدِّين الحوثي –وأمثاله– لإحياء آراء الجارودية، والتَّقريب بينها وبين آراء المذهب الاثنا عشري. وهذا بدوره أحيا عداءَهم الكامِن لأهل السُّنَّة والجماعة، ودفعهم للقدح في عقائدهم وأعلامهم ومنهِجهم.

ومع بروز "تنظيم الشَّباب المؤمن"، وتزَّعُم حسين الحوثي له، مطلع الألفية الثَّالثة، برز التَّقارب الفكري والمذهبي بين هذا التَّيَّار وبين الفكر الخميني والمذهب الاثنا عشري بقوَّة. وخلال عِقدٍ كامِلٍ غزت عقائد وأفكار الاثنا عشريَّة الأكثر تطرُّفًا وانحِرافًا البيئة الزَّيدية بشكلٍ سريع، وتمكَّن التَّنظيم –الذي قُتِلَ زعيمه في 2004م– مِن السَّيطرة على صنعاء في 2014م عبر تجنيد أبناء المذهب الزَّيدي الَّذين باتوا تابعين ومجنَّدين للمشروع الجديد.

وفي سبيل أطماعهم تحالف الحوثيون مع "الحزب الاشتراكي اليمني"، ثمَّ مع "المؤتمر الشَّعبي العام"، واخترقوا الأحزاب القوميَّة (النَّاصريَّة والبعثيَّة)، والمنظَّمات الأجنبيَّة. كلُّ ذلك كان سعيًا وراء تمكين مشروعهم سياسيًّا ولخدمة أهدافهم البعيدة. وهذا جعل مِنهم شخصيَّات برجماتيَّة نفعيَّة لا مبدأ لها ولا خُلُق؛ قادرة على تبنِّي كافَّة الأفكار اليساريَّة والقوميَّة واللِّبراليَّة لخدمة الطَّائفة والوصول للسُّلطة واستعادة أمجاد الإمامة.

لذا فإنَّ العارف بأحوال هذا التَّيَّار وأتباعه ورموزه يجِدُ فيهم رِقَّة في الدِّين، وتلبُّسًا بكُلِّ ضلالة وبدعة وخرافة، وإيمانًا بالباطل، وجُرأةً على الحقِّ وأهله؛ كما وصف ابن تيمية معسكرهم منذ القرون السَّابقة. وقد وجد في حركتهم شخصيَّات جرِيئة في تطاولها على الدِّين والرَّسول –صلى الله عليه وسلم– وصحابته؛ أمثال: علي البخيتي النَّاطِق السَّابق باسم حركة

الحوثي، والمنشقّ عنها مؤخرًا، والّذي بات يعلن إلحاده صراحة عبر صفحات التّواصل الاجتماعي كتابة وعبر المقاطع المرئيّة الّتي ينشرها.

الثانية: قوى اليسار والأحزاب العلمانيَّة.

كان "الحزب الاشتراكي اليمني" مِن أكثر الأحزاب جرأة في الواقع اليمني على إظهاره للإلحاد ومحاربته للدِّين ونبذه للأخلاق وروح المحافظة الّتي كانت سائدة في المجتمع اليمني في الجنوب. في حين كانت الأحزاب النّاصريَّةِ والبعثيةِ في الشّمال تستخفي بمواقفها العِدائيَّة ضِدَّ الدِّين والشّريعة والأخلاق المحافِظة إلّا في حدُود أتباعها وقواعدها الّذين انخرطوا في تنظيماتها. فكانت السِّمة الغالبة على الوضع في الشّمال هي تقديرُ الدِّين واحترامه، وإن وُجِدت حالاتٌ نادِرةٌ وشاذةٌ تُبدي نوعًا مِن التّطاول والاستهانة. أمّا الجنوب فكان السّائد في الحزب هو عداءُ الدِّين ومحاربة حملته.

مع قيام الوحدة، لم تُجرِ الأحزاب اليمنيَّة أيَّ مراجعات لأفكارها وآرائها المناقِضةِ للدِّين والمتصادمة معه، بل سعى كثيرٌ مِنها للتّوافق مع مطلب الحزب الاشتراكي في ترسيخ مبدأ علمانيَّة الدُّستور –كما سبق وأشرنا. وأعاد النِّظام الديمقراطي بما أتاحه مِن حُرّيّات في الشّأن الإعلامي والثّقافي والفكري للأحزاب العلمانيَّة نشاطها في إظهار أفكارها ورؤاها عبر الوسائل الإعلامية والمنتديات والملتقيات والمنظّمات المدنيَّة؛ ساعية –في المقابل– للفت الانتباه الخارجي لها بتسويق ذاتها كأحزاب لبراليَّة منفتحة بعيدة عن الدِّين، ومستعيدة صلاتها بالأحزاب العلمانيَّة في الوطن العربي. وقد سجَّلت صحفُ هذه التّيّارات –النّاصريَّة والبعثيَّة واليساريَّة– خلال فترة التّسعينيّات جُزءًا مِن نشاط تلك الأحزاب في الخارج، وحضور كوادرها الشّابة مِن الفتيان والفتيات لملتقيات ذات طابع تحرُّريٍّ ومُتمرّدٍ على الهويَّة والدِّين.

وقد كانت تونس والمغرب ولبنان ومصر هي محطّات اللِّقاءات الّتي تجمع بين كوادر الأحزاب العلمانيَّة الشّابة، وتعمل على تأهيلهم وتزويدهم بالأفكار والأطروحات وتستحثهم على الحراك في اتجاه مواقف مضادةٍ للدِّين ومعاديةٍ لحملته. وكان مِن ثمار هذه اللِّقاءات والمؤتمرات بروز دعوات نشطة للدَّولة "المدنيَّة" بمفهوم علمانيٍّ، وربما الدَّعوة صراحة إلى دولة "علمانيَّة" عبر كتابات صحفيَّة أو عبر المواقع أو بالنَّشر في صفحات التّواصل الاجتماعي[18]. وهو ما بدا واضِحًا في اليمن عقب 2012م في الوسائط الإعلاميَّة المختلفة.

لقد كانت كوادر التّيّار اليساريّ أجرأ الكوادر على استهداف الدِّين والهويَّة، نظرا لطبيعة ما تلقّفته مِن مُعتقداتٍ إلحاديَّة وتربية فكريَّة معادية للدِّين والتّقاليد والأعراف والأخلاق. ونتيجة الجرأة الّتي تمتلِكُها والدَّعم الّذي كانت تحظى به

[18] انظر: العلمانية في زمن الحرب اليمنية.. خطاب خجول يعتبره معارضوه هدَّاما، أصيل سارية، موقع (رصيف 22)، في: 2018/11/22م، على الرابط: https://raseef22.com/article/172556- E تاريخ التصفح: 2019/6/8م

والرِّعاية الَّتي تلقَّتها مِن المنظَّمات الأجنبيَّة استطاعت هذه الكوادر مِن نشر أفكارها وآرائها وسلوكيَّاتها في الأوساط الاجتماعيَّة والنُّخب الثَّقافية والشَّباب.

الثَّالثة: الحزب الحاكم:

عقِبَ الثَّورات الشَّعبية عام 2011م أظهرت الأنظمة العربية وجهها الحقيقي، وبرزت الدَّولة العميقة كقوة معادية للدِّين، وإن تغطَّت به حِينًا، أو سترت عورتها ببعضه. فأصبحت القبضة العسكريَّة والأمنيَّة والحرب على مؤسسات الدِّين ومنابع التَّدين ورجال الدِّين في أعلى الاهتمامات وأُولى الأولويات. لذلك شهِدت مِصرُ وتونُس وسوريا واليمن حربًا ضروسًا على الدِّين، في جماعاته وحركاته وبناه المؤسسية التعليميَّة والدَّعويَّة والتَّربويَّة الحكوميَّة والأهليَّة، وإن اختلفت الأداة التي تمَّ بها محاربته.

وما يجري مِن نشرٍ للإلحاد –اليوم في اليمن، أو لمعتقدات كفريَّة مناقضة للدِّين[19]، أو خرافاتٍ بدعيَّة، أو فساد أخلاقي، يُحمَى مِن قِبلِ أجهزة سلطويَّة تابعة للحوثيين في الشَّمال وقوات ما يُعرف بـ"المجلس الانتقالي" في الجنوب – ومُعظمُ الخلفيَّةِ الفكريَّةِ لرموزه اشتراكيَّةٌ.

وقد أعطى النِّظامُ المصريُّ العسكريُّ –بعد الانقلاب على أوَّل رئيسٍ وحكومة مُنتخبة– نموذجًا لما يُرادُ للدُّول العربية أن تعيشه وتعانيه، وطبيعة التَّعامل الَّتي سيواجه بها الدِّين والمتديِّنين إذا شكَّلوا تهدِيدًا على القوى العالميَّة. ولولا بقيَّةٌ مِن تدافع لأظهرت هذه الأنظمة أسوأ ما يمكنها مِن خفايا، لكنها تضبط ما تظهره بحسب سكوت النَّاس عنه؛ وهنا يمكِنُ التَّذكير في هذا المقام بتصريحات الرَّئيس التُّونسي، القائد السِّبسي، بشأن قانون الميراث واعتباره تونس "دولة علمانيَّة لا شأنَ لها بالدِّين وبالقرآن"[(20)].

ويجري حاليًّا في اليمن تمكين التَّيَّار الشِّيعي مِن الإمساك بمقاليد الحكم شمالا، وتمكين التَّيَّار اليساري مِن الإمساك بمقاليد الحكم جنوبا؛ فهما أفضل تيَّارين يمكِنُ لهم أن يتقلَّدا دفَّة المواجهة في المرحلة الحالية والمستقبليَّة. ما يعني أنَّ الدِّين والهويَّة في اليمن ستُعاني في المرحلة القادِمة مِن حربٍ شعواءٍ مِن قبل هذه الكيانات الَّتي ستمسك بمقاليد السُّلطة.

الرَّابعة: أصحاب الأهواء والشَّهوات:

البحث عن الشَّهوات أو الطَّمع في المكاسب المالية أو المناصب أو السَّعي وراء الشُّهرة دفع بعدد مِن الشَّخصيات، وبالأخص الفتيان والفتيات، لركوب موجة الصِّراعات السِّياسية للنفوذ مِن خلالها لأهدافهم الشَّخصية. ومِن ثمَّ حفَلَت المواقع وصفحات التَّواصل الاجتماعي والميديا بمقاطع سيِّئة يتكلَّم فيها هؤلاء الشَّباب بجرأة ضدَّ الدِّين، استهزاءً بشعائره، وطعنًا في حملته، وتشكيكًا في قيمه ومبادئه وأحكامه.

---

(19) انظر: البهائيون في اليمن بين ثالوث الاضطهاد وأمل الثورة الشبابية، حميد منصور القطواني، موقع يمن برس, في 2013/1/8م. على الرابط:
https://yemen-press.com/article5410.html. تاريخ التصفح: 2019/6/3م.

(20) انظر: تصريحه على موقع (سي. إن. إن) بالعربي، على الرابط التالي:
https://arabic.cnn.com/middle-east/article/2018/08/14/tunisia-president-civil-country-quraan
تاريخ التصفح: 2019/6/8م.

فجوُّ العداء السِّياسي للإسلاميين وفرَّ لهؤلاء بيئة آمنة للحديث[21]. كما أنَّ للتَّحفيز الَّذي تقوم به بعض المنظَّمات الأجنبيَّة المشبوهة دور في هذا الشَّأن؛ وربَّما اتَّخذه البعض طريقًا للحصول على لجوء سياسي هنا أو هناك. وبات يوجد في الغرب منظمات مختصَّة بمساعدة اللَّاجئين الَّذين يعلنون عن إلحادهم والخروج عن ديانتهم ونبذ شريعتهم. ففي ألمانيا توجد جمعية "إغاثة اللَّاجئين الملحدين"[22]. وتؤكِّد دولة كالسُّويد على أنَّ اللُّجوء إليها يتمُّ تبعًا لميثاق الأُمم المتَّحدة المتعلِّق بحالة اللَّاجئين والقانون السُّويدي. ووفقا لذلك يعتبر لاجئًا كلُّ مَن يتعرض لخوف كبير مِن الاضطهاد على أساس: عرقي، أو وطني، أو ديني، أو آراء سياسية، أو نوع الاتجاه الجنسي.. إلخ.

ومنذ عام 2014م أصبحت قوانين اللُّجوء في أوربَّا أكثر تشدُّدًا؛ في محاولة مِن هذه الدُّول للتَّقليل مِن أثر الهجرات الجماعيَّة المتدفِّقة إليها مِن مناطق النِّزاع في حوض البحر المتوسِّط وما حوله. لذلك لجأ البعض لتقديم مبرِّرات جديدة لطلب اللُّجوء إلى تلك الدُّول. يقول أحد مواقع الهجرة: "واقعيًّا فرصة حصول الملاحدة والشَّواذ جنسيًّا على حقِّ اللجوء أكبر مِن غيرهم، وهو ما دفع الكثير مِن الأشخاص للادِّعاء بأنَّهم ملاحدة أو شوَاذ رغم أنَّهم ليسوا كذلك"! وبحسب الموقع فإنَّ "فرصة هؤلاء الأشخاص تكون أكبر، لأنَّهم يعتبرون مضطهدين مِن معظم المجتمع، وقد يصل الاضطهاد إلى الحكومات، وليس مِن فئة معينة"[23].

وهذا ما يُفسِّر توجُّه محاولات عددٍ مِن شباب، يمنيِّين وسوريِّين ومصريِّين وخليجيِّين، إظهار الإلحاد والإعلان عن شذوذهم، بغض النَّظر عن صدقهم أو كذبهم، في الفترة الأخيرة، ومخاطبتهم للدُّول والمنظَّمات الغربيَّة لحمايتهم وتوفير اللُّجوءِ لهم. وهناك بالفعل مَن يريد أن يعيش حياة الانحلال والشَّهوة الَّتي يراها عبر وسائل الإعلام في المجتمعات الغربيَّة، لذلك تظهر عليه التَّحوُّلات هناك سريعا.

في المقابل تُغلِقُ هذه الدُّولُ المدَّعِيَّة لحقوق الإنسان وحمايته أبوابها أمام المهاجرين الشَّرعيين، أو أولئك الفارين مِن الحروب، والفقر، والتَّهديدات الأمنيَّة الَّتي تلاحقهم نظرًا لتوجُّههم الإسلامي، مبقية الباب فقط للملاحدة والشَّواذ جنسيًّا للقبول! وكأنَّ الرِّسالة للرَّاغبين في دخول تلك البلدان كونوا يهودا أو نصارى أو ملاحدة أو شواذا تدخلوا بلادنا بسلام!

---

[21] مِن بين الأسماء الصَّحفية الشبابية التي اشتهرت في هذا الشأن محسن عايض، وقد صدرت فتوى لعلماء اليمن ضدَّه وضدَّ عددٍ مِن أمثاله عام 2012م. وهو حسب مقابلات معه شارك في ثورة 11 فبراير، وقد تطاول في سبِّ الذات الإلهية عام 2012م، ثمَّ عاد ليثني على الرئيس علي صالح، وامتدح الحوثيين ثم عاد لذمهم، وهو في ذلك كله معادٍ بوضوح وقوة للتيار الإسلامي. ويمكن الرجوع لمنشوراته عبر صفحة:
https://www.facebook.com/Mohsen.aiead

[22] انظر: عندما تصبح حياة الملحدين في خطر ويضطرون للهرب، موقع (D.W.)، على الرابط: https://www.dw.com/ar/ تاريخ التصفح: 2019/5/25م.

[23] اللجوء بسبب الإلحاد في لمحة مختصرة وبسيطة، موقع للهجرة معنا، على الرابط: https://www.immig-us.com تاريخ التصفح في: 2019/5/28م.

رابعًا: أسباب انتشار ظاهرة الإلحاد:

الأوَّل: الأحزاب العلمانيَّة.

ظهرت الأفكار العلمانيَّة في اليمن منذ منتصف القرن الماضي في إطار تنظيمات حركيَّة وسياسيَّة لها امتدادها بمثيلاتها في الوطن العربي، والعالم الأجنبي. وكانت بتنوع توجُّهاتها تستهدف الدِّين والهويَّة، وإن بنسب متفاوتة بينها. وقد أثَّرت هذه التَّنظيمات في المجتمع اليمنيِّ، واستطاعت أن تنتشر وتتوسَّع، وتوجد لها قاعدة شعبيَّة موالية ومناصرة.

وحيث يقف الدِّين الإسلاميُّ والهويَّة عائقا أمام الفكر العلمانيِّ فإنَّ استهدافهما يعدُّ هدفًا لهذه التَّنظيمات، لذلك هاجم الحزب الاشتراكيَّ، فترة حكمه للجنوب، الدِّين والهويَّة باعتبارهما رجعيَّة وتخلُّفًا، وسعى في نشر ثقافة الإلحاد الشِّيوعيَّة. وهكذا كانت نظرة التَّنظيمات النَّاصريَّة والبعثيَّة واليساريَّة في الشَّمال. لذلك وقفت هذه الأحزاب جميعا عام 1990م مع علمانيَّة الدُّستور اليمني، ورفضت أيَّ خطاب يجعل الشَّريعة مرجعيَّة عُليا ومصدرًا وحيدًا للقوانين. وكثير مِنها ظلَّ مُتمسِّكًا بأُطرُوحته المعادية للشَّريعة، في الأوراق المقدَّمة في "مؤتمر الحوار الوطنيِّ" -2013م/2014م- فقد رفض الاشتراكيُّون والنَّاصريُّون والمؤتمريُّون والتَّيَّار اللِّبراليُّ والنَّسويُّ في أثناء التَّصويت على مخرجات اللِّجان على صيغة "دين الدَّولة الإسلام"، و"الشَّريعة الإسلاميَّة مصدر جميع التَّشريعات"!

الثَّاني: قوى الاستعمار الخارجي.

لقد رحبت الدُّول الاستعمارية، خلال القرن الماضي، بقيام كيانات وأحزاب علمانيَّة، في مصر والشَّام والعراق ولبنان وغيرها، ودعمت وصولها للسَّلطة. ويمتدُّ هذا الدَّعم والاهتمام بالأحزاب والأنظمة السِّياسيَّة الَّتي تلتقي مع الغرب في الحملة على الدِّين والهويَّة بقدر ما يسمح به تقاطع الأهداف وحجم المصالح. وقد أظهرت الثَّورات المضادة إلى أيِّ مدى ينكث الغرب بشعاراته البرَّاقة حول الدِّيمقراطيَّة والحقوق والحرِّيَّات في حال أعادت للمسلمين تمكنَّهم مِن حكم بلدانهم وأوطانهم استنادًا إلى شريعتهم وثقافتهم وبروح الاستقلال والسِّيادة؛ حيث دعم الانقلابات العسكريَّة والأنظمة الطائفيَّة والمليشيَّات الإجراميَّة المسلحة الخارجة عن القانون وغض الطَّرف عنها، إضافة لذلك، تقدِّم الدُّول الغربيَّة الدَّعم والتَّمويل للمنظَّمات الحقوقيَّة والفكريَّة الحاملة للأفكار العلمانيَّة والإلحادية لتقوم بدورها الوظيفي في أوساط النُّخب والشَّرائح الاجتماعيَّة المختلفة.

الثَّالث: الضَّعف الإيماني والسُّقوط الأخلاقي.

إنَّ انحسار الدَّعوة الإسلاميَّة وتراجع العمل الإسلاميِّ في ظلِّ التَّضييق والتَّهديد الحاصلين، وغلبةَ الصِّراع السِّياسيِّ والاحتراب العسكريِّ وأشكال التَّعصُّب الاجتماعيِّ والمذهبيِّ، أثَّرت في مستوى إيمان النَّاس وتديُّنهم، خاصَّة مع حدوث أخطاء في الخطاب والحراك الإسلاميِّ، وتفرُّق كلمته وتنازع أطرافه، وظهور بعض الحالات الَّتي شوَّهت صورته النَّقيَّة.

في ظلِّ هذه الظُّروفِ والملابسات تبرز ردَّات فعل فرديَّة تتطاول على الثَّوابت والمقدَّسات، وتصل إلى حدِّ المجاهرة بالإلحاد والطَّعن في الدِّين والقرآن ومحمد –صلى الله عليه وسلم. وهي ظاهرة لا تعدو أن تكون استثنائيَّة، لا تعبِّر عن توجُّهٍ أو تيَّارٍ عام؛ لذلك تختفي تلقائيًّا بعد أمدٍّ قصِير مِن الوقت، وتجد في الموعظة والنُّصح عِلاجًا لها. وهي رغم سوئها لا تعدُّ خطرًا كبيرًا أو تهديدًا للمجتمع وتديُّنه، كونها شاذة ومرتجلة وآنيَّة. غير أنَّ الخطير فيها هو استغلال أطراف معادية للدِّين والهويَّة لهم لتوسيع دائرة هذه الظَّاهرة، وخلط الأوراق على الإسلاميِّين بهم، وصرف أنظارهم إلى الهامش بعيدًا عن القوى السِّياسيَّة الَّتي تسعى للإمساك بمقاليد الأمور وتغيير هويَّة المجتمع ومحاربة عقيدته مِن خلال القوانين والسِّياسات والإعلام والتَّعليم وغيرها مِن أدوات السُّلطة.

خامسًا: أجندات حملة التَّطاول على ثوابت الدين والهوية:

إنَّ الحملات المسعورة المنظَّمة والموجَّهة للهجوم على الدِّين والهويَّة تحمل خلفها أجندات عدَّة، ومِن هذه الأجندات والخلفيات:

الأوَّل: تشكيك النُّخب.

تعدُّ النُّخب العلميَّة والفكريَّة والثَّقافيَّة والمهنيَّة رائدة أيِّ مجتمعٍ، ومؤثِّرة في إدارة عمليَّة التَّغيير فيه. وقد خضعت النُّخبُ اليمنيَّة منذ وقتٍ مُبكِّر لغسيل العقول. فالمبتعثون اليمنيُّون للخارج، بهدف إكمال المراحل التَّعليميَّة أو بهدف التَّدريب، في عهد الإمامة وفي ظلِّ الجمهورية فيما بعد، تخطَّفت بعضهم التَّنظيمات اليساريَّة والقوميَّة والعلمانيَّة المختلفة، نتيجة غياب العناية والبرامج المصاحبة الَّتي تحافظ على هويَّتهم هناك. فعاد كثير مِنهم إلى أرض الوطن ليمثِّلوا طليعة هذا الأفكار المبشِّرون بها.

تخاطب النُّخب المتعلِّمة والمثقَّفة –اليوم– ليُعادَ تشكيل وعيها وفكرها وهويَّتها بغية أن تقوم بدورها المأمول فيها في التَّغيير بالأوساط الاجتماعيَّة. ويأخذ الخطاب معها منحى التَّشكِيكِ في محكمات الدِّين وثوابت الهويَّة، عبر إيجاد قطيعة بينها وبين الدَّعوة والحراك الإسلاميِّ. ويعتمد خطاب التَّشكِيك لهذه النُّخب على لغة متلبِّسة بالعلم، وطرحٍ يتلمَّس أخطاء وإشكالات وسلبيَّات العلماء والدُّعاة والعمل الإسلاميِّ في بعده البشريِّ[24]، ليبني عليه صورة مشوَّهة عن الدِّين وعن الهويَّة؛ ومِن ثمَّ توجيههم نحو معادات الدِّين بالمطلق، أو اتِّخاذ موقف رافض له باحث عن البدائل!

الثَّاني: تحويل حركة الإلحاد لتيَّار مُوجَّه.

السَّعي لإيجاد تيار إلحاديٍّ في اليمن قديمٌ جِدًّا، وابتدأ مع المدِّ اليساريِّ الماركسيِّ الَّذي تغلَّبَ في مرحلة تاريخيَّة على المشهد السِّياسيِّ في الجنوب، وظلَّ حاكِمًا له حتَّى عام 1990م. وظلَّت مساعي نشر الفكر الإلحاديِّ مُستمِرَّةً عبر منافذ الأحزاب اليساريَّة، أو عبر مُنظمَاتٍ غربيَّة نشطت في تبنِّي هذا التَّوجُّه في الخفاء، مِن خلال رعاية برامج مختلفة في صنعاء وعدن وتعز والحديدة وصعدة وإب وغيرها مِن المدن. وكانت بعض مؤسَّسات الحراك النَّسوي غطاءً لهذه الجهود في الوسط النِّسائي؛ لكنَّها أضافت عليها جهودًا في تغيير وعي المجتمع اليمني المحافظ تجاه المرأة والأسرة لصالح مفاهيم ورؤى غربيَّة صِرفة.

واليوم، يعود مجدَّدًا نشاط حركات الإلحاد بدعمٍ غربيٍّ وعربيٍّ في أوساط الشَّباب والشَّابَّات تحت لافتات أدبيَّة وفنيَّة وثقافيَّة. ويواكب ذلك نشاطٌ حقوقيٌّ للدِّفاع عن ظاهرة إشهار الإلحاد، تحت مبرِّرات عِدَّة، ومحاولة شرعنتها بعدد مِن النُّصوص الدِّينيَّة والقوانين الدُّوليَّة.

---

[24] انظر كمثال إلى مقالات الكاتب بكر أحمد، على موقع "الحوار المتمدن"، وهو الموقع الرئيسي لمؤسسة الحوار المتمدن، والتي تعرف ذاتها بأنَّها يسارية, علمانية, ديمقراطية، تسعى: "مِن أجل مجتمع مدني عِلماني ديمقراطي..": http://www.ahewar.org/m.asp?i=466

الثَّالث: إيجاد صِراع إضافي على الدِّين والهويَّة.

صناعة تيَّار إلحاديٍّ معلن يدفع بالضَّرورة، في ظِلِّ صيرورة هذا التَّيار إلى قوَّة معادية للدِّين، إلى خلق صراع جديد حول مسائل الدِّين والهويَّة لا مِن منطلق قضيَّة للأفراد بل على مستوى الدُّستور والقوانين وطبيعة النِّظام الحاكم وفلسفته القيميَّة والأخلاقيَّة، وسياسة وبرامج ومناهج الدَّولة التَّعليميَّة والثَّقافيَّة والإعلاميَّة. لذلك ينبغي استصحاب هذه الرُّؤية في تصوِّر كيد الأعداء ومكرهم في صِناعة الصِّراعات الدَّاخلية والطَّابور الخامس الَّذي يتهدَّد الدِّين والهويَّة مِن داخل بيئتنا.

الخاتمة:

عرضنا في هذه الورقة السِّياق التَّاريخي لظاهرة الإلحاد في اليمن، وعرَّجنا على أهمِّ المحطَّات المتعلِّقة بالقضيَّة بشكل بارز ومؤثِّر. فالحاضر هو ترجمة الماضي، وفصل المراحل التَّاريخيَّة عن بعضها إجرام في حقِّ المعرفة والوعي. وليس مقصودنا مِن ذكر السِّياق التَّاريخي تحميل السَّابقين وإدانتهم بمآلات واقعنا، وإنَّما فهم المسار الحقيقي للظَّاهرة نشوءًا ونموًّا وتطوُّرًا كمدخل لفهم مجرياتها اليوم.

كما أوضحنا مظاهر الهجوم على ثوابت الدِّين والهويَّة كمدخل خادم لهذه الظَّاهرة، ومقدِّمة لا ينفكُّ عنها أيُّ مجتمع متديِّن تغزوه مظاهر الإلحاد وغياب الإيمان. لأنَّه –بطبيعة الحال– لا يمكن إنشاء بناء محلَّ بناء قائم، لذا فإنَّ أوَّل خطوات الإحلال هي هدم البناء القائم ليقوم البناء الآخر محلَّه. والإلحاد والإيمان نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فلا إلحاد ببقاء الإيمان، لذلك لا يمكن ظهور الإلحاد في مجتمع مؤمن يمثِّل الإيمان له مرجعا وملجأً حصينا.

وذكرنا مِن مظاهر الهجوم على ثوابت الدِّين والهويَّة التَّطاولُ على الذَّات الإلهيَّة، والتَّطاول على النبي –صلى الله عليه وسلم، والتَّطاول على الدِّين الإسلامي، والتَّطاولُ على حملة الدِّين قديمًا وحديثًا، باعتبارها الخطوط العريضة لمعالم الدِّين نظريًّا وواقعيًّا. وقد دلَّلنا على هذه المظاهر بأحداث وواقع بارزة، دون الاستيعاب لتفاصيل وأحداث عدَّة.

وبينت الورقة طلائع الحملة على ثوابت الدِّين والهويَّة والمتمثِّلة في: حركة البعث الزَّيدي المرتبط بإيران والمذهب الشِّيعي الاثنا عشري، وقوى اليسار والأحزاب العلمانيَّة، والحزب الحاكم (المؤتمر الشَّعبي العام)، وأصحاب الأهواء والشَّهوات مِن ذوي الوجاهة والتَّأثير ممَن تسعفهم إمكاناتهم في تحقيق غاياتهم الفاسدة. هذه الطَّلائع وإن اختلفت أهدافها وغاياتها لكنَّها ساهمت جميعًا في إسقاط "الدِّين" كقيمة في حياة المجتمع والفرد.

هذه الطَّلائع حوَّلت ظاهرة الإلحاد مِن بعدها "الاختياري" الفردي، إلى بعدها السِّياسي الموجَّه، لتأخذ حضورًا مؤسَّسيًّا، إعلاميًّا وثقافيًّا وسياسيًّا ونسويًّا. وهذا ما جعل الظَّاهرة أكثر حضورًا وأقوى بروزًا. مع ما ساهمت به عوامل وأسباب أخرى في انتشار الظَّاهرة –ممَّا تطرَّقت له الورقة– كقوى الاستعمار الخارجي وضعف الإيمان والسُّقوط الأخلاقي مجتمعيًّا.

وخلصت الورقة إلى أنَّ أجندات حملة التَّطاول على ثوابت الدِّين والهويَّة تمثَّلت في: تشكيك النُّخب اليمنيَّة خاصَّة في الدِّين، كونَّها محلَّ الاقتداء والتَّأسي جماهيريًّا؛ وتحويل حركة الإلحاد مِن مسارها الفردي لتكون تيَّارًا مُوجَّهًا لأغراض مذهبيَّة أو سياسيَّة؛ وإيجاد صِراع إضافي داخل المجتمع على قضايا الدِّين والهويَّة. وهي أمور ينبغي أن يتداركها المجتمع في تقييمه لمسار هذه الظَّاهرة ومآلاتها على مستقبله، ومستقبل الأجيال القادمة.

ومِن الخطأ جدًّا التَّعامل مع ظاهرة الإلحاد في شقِّها الفردي ودون إطلالة على أبعادها، لأنَّنا بهذا قد نحكم على أفراد قضائيًّا في أمر لم يتسبَّبوا هم فيه بل كانوا ضحيَّة مِن ضحاياه.

فهرس المحتويات

مقدمة: 2
أولًا: السِّياق التَّاريخي. 3
ثانيًا: مظاهر الهجوم على ثوابت الدِّين والهوية. 8
الأوَّل: التَّطاولُ على الذَّات الإلهية: 8
الثَّاني: التَّطاول على النَّبي –صلى الله عليه وسلم: 10
الثَّالث: التَّطاول على الدِّين الإسلامي. 11
الرَّابع: التَّطاولُ على حملة الدِّين قديمًا وحديثًا: 12
ثالثًا: طلائع الحملة على ثوابت الدِّين والهوية: 14
الأولى: حركة البعث الزَّيدي المرتبط بإيران والمذهب الشِّيعي الاثنا عشر: 14
الثانية: قوى اليسار والأحزاب العلمانيَّة. 15
الثَّالثة: الحزب الحاكم: 17
الرَّابعة: أصحاب الأهواء والشَّهوات: 17
رابعًا: أسباب انتشار ظاهرة الإلحاد: 19
الأوَّل: الأحزاب العلمانيَّة. 19
الثَّاني: قوى الاستعمار الخارجي. 19
الثَّالث: الضَّعف الإيماني والسُّقوط الأخلاقي. 19
خامسًا: أجندات حملة التَّطاول على ثوابت الدين والهوية: 21
الأوَّل: تشكيك النُّخب. 21
الثَّاني: تحويل حركة الإلحاد لتيَّار مُوجَّه. 21
الثَّالث: إيجاد صِراع إضافي على الدِّين والهويَّة. 22
الخاتمة: 23
فهرس المحتويات 24